رؤى

الأيام

العدد 4355 الاحد 10 ذو القعدة 1422 هـ 4 فبراير 2001م

AL-AYAM N 4355 Sunday 4th February 2001

صفحات متخصصة تصدر كل احد

حورية العاشق: فضاء اللغة وعامل الإلهام

بقلم - علي الستراوي:

حينما يتوجسك حنين دائم مسكون بلغة عاشقة، حينها يستطيرك نهار آخر تتحاق في فضائه اسراب الطيور العائدة بعد موسم الاقفال. هكذا هي لغة علي عبدالله خليفة الشاعر الذي كلما اوغلت في حنينه طيّرك بعوالم عشقه واسرك داخل شباكه. وكلما كنت قريبا من معالم تخيلاته، كلما احسست بأنك جزء من هذا الحنين، وجزء من ارباب الحلم لديه.

في ديوانه الاخير «حرية العاشق» الصادر في الاشهر الاخيرة للعام المنصرم 2000 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، في هذا الكتاب المتوزعة قصائده على 134 ورقة من الحجم المتوسط وعن 23 قصيدة، تسكن الشاعر رعشة تأخذ بك نحو ارهاصات كونها الشاعر عبر رؤية اخذت من نبض ما يسكنه الكثير من (الهم) ومن الفرح العاشق للظل ونهار الناس.

■ علي عبدالله خليفة

الفضاء ولغة التخيل

سقيتُ وُرود الرّماد
وعالجتُ فيها الحروق
واسكنتها مُهجة الفجر قبل الطلوع
كنستُ الفناء الفسيح
قلتُ لأسمال تلك الرُّعود!
هنيئاً لمن يرتجي منطفات البُروق

ان هذه الرؤية في فضاء لغة الشاعر هي امتداد للغة الحنين التي تمسك بها الشاعر وترك اجواء اللغة فيها مفتوحة النوافذ. وان يتخذ علي لفضاء قصائده استراتيجية، فأرى ان هذه الاستراتيجية في فضاء علي هي حرية «اللغة + حرية التحلّق في فضاء للهم والالهام» اللذين مع اللغة يشكلان حلم «علي». وليس لجمال لغة علي سر سوى وهج في اعتقادي يسكن الشاعر ويفيض بعوالم تخيلاته نحو فيض.

وفي المقطع الذي قد اشرت اليه في بدء «الفضاء ولغة التخيل» تكتشف مدى القدرة عند الشاعر في اللعب باللغة وفتح نوافذ فضائه عبر حرية التخيل لديه.

فالسُّقيا لورود الرماد، هي سقيا لعوالم الصراع الداخلي لدى الشاعر، وما معالجة الحروق في قوله «وعالجت فيها الحروق» سوى اصرار انشدّ بجراب الشاعر وادخله مسكونا بوجع هذا الرماد نحو علاج «الهم» الذي كلما جرح الشاعر، كلما اوقفه من الم نحو ألم جديد في تكوين ارهاصات - الدنيا - ولو طبقنا هذه الرؤية المشحونة بالحنين على جميع نصوص الديوان لرأينا أننا مع حورية العاشق قد نستعجل العجلات نحو قرءاة لغة الشاعر في الوصول لعوالم عمق هذا الحزن الشفيف عند علي. وليس اصعب من ان يلتقي القارئ مع علي في جزر احلامه نحو فضاء الوضوح للمشهد الشعري من البساطة التي ليس من السهل التوغل فيها. والمشهد الصعب كما رآه ليس في تدوير الأحلام والتقاطها فيه بقدر ما في اللغة من شفافية «السهل الممتنع» من وضوح الرؤية التكاملية لدى الذهن. فقد استطيع ان اقول ان لغة علي في هذا الديوان هي اللغة الذهنية التي تقودك نحو عوالم الصورة. والصورة كلما اقتربت منها كلما اخذتك هذه الصورة الى رؤية التحليل لما يختزنها والمثال في هذا المشهد الذي التقطه من قصيدة «ازدواج» من الديوان؛ حيث يقول الشاعر:

تكورا، واكتنزا بالدفء
والعسل المصفى والمكابرة

واجهشت زبيبةٌ كادت تمسُّ
غير انها تماسكت، واستقرت
كل الحلا العقود في مكنونها

في هذه الرؤية يجرك هذا النص ويدخل بك من دهليز الى آخر، وانت في زوايا هذا الدخول قد تضيق خطاك وقد تتسع، حتى يضمر البوح الذي نسجه الشاعر من خلال رؤيته لهذا النص «تكورا، وارتعشا رغائبا، واضمرا بوحا يهزأ لغة الكلام جاريا على اللسان.. يستنكر قامئا».

وفي اتساع وضيق الرؤية في النص يتسع حلم اللغة لدى الشاعر، ففي الشق المذكور عند الشاعر يسمو الباب الالهامي الذي يتلاعب بنفس الشاعر ويأخذ به متمتعا.. وفي نهار الصبح يقذف بالشاعر تعبا على اكوام الورق التي قد مزقها الشاعر وهو يهذي بحلمه وسخونة الشوق الذي ظل يأخذ بهذيانه نحو ساحة الرؤيا. وكل هذه الحوارات الساخنة يأخذنا لها هذا الديوان عبر نصوص الدفء والحيرة لجمرة تسكن الشاعر، يتدفأ بها احيانا وفي الكثير من الاحايين يستصرخ الوقت ويستغيث من ألم هذه الجمرة المسمى «قصيدة» وليس لشاعرية علي سلطة في هذه النصوص سوى سلطة الشعر، فليس في مقدوره العزوف عن عوالم جمال لغته، وليس في مقدوره حبس الشوق المدفون بجرار جراحه التي ينبض بها القلب.

الارهاف وجمال الحاسة اللغوية

كما قلت وعلى مدى عمر طويل ارتبطت القصيدة مع علي منذ «انين الصواري - عطش النخيل - اضاءة لذاكرة الوطن - في وداع السيدة الخضراء - عصافير المساء» بعض هذه الاصدارات نرى عليا في جرح الباحث عن بلسم يخيط به همه. فان الهم الذي عالجه بالكثير من قصائده، ظل معه في ذاكرة فجرّه نحو التمسك بهذا الألم.

فليس في الشعر العامي وحده الساكن في جرح هذا الهم وانما ايضا في لغته الفصحى هي نفس الهمّ لشعره العامي.

فالارهاف وجمال الحاسة اللغوية لديه هي اسمى شيء يمتلكه علي، والدليل انك مع كل ما أفرزه عمره الشعري من جراح، ظل الكثير منها ملازما له لم يتمثل بواقع الزمن انما ظل معه في حلم هادئ يذيبه على نار هادئة. فالارهاف هي المادة التي تمسك بها علي وظل يقودها بخطى ثابتة نحو هلاج القصيدة عنده، وظلت في المقابل لغته تزين هذا الهمّ وتأخذ به نحو البحث عن «مكتوب جديد» فلك له حزنه، وكلما كان علي قريبا من هذا الالم كلما كان قريبا من مشهده الشعري الذي يشكل الفضاء للتخيل لديه، ويأخذ به نحو جنون ارهاصات الدنيا.

فهل من الممكن اعتبار نص علي في هذه المجموعة، «حورية العاشق» هو نص الهوية القادمة التي ستظل تقرؤها مع علي.

في اعتقادي ان الهوية عند علي هي هوية تراثية أسسها واضحة ومعالمها في «ثوب النخل، وفي فرقعة الحجول». وليس هوية علي هي اللون الذي استشرق بغربية الغرب واستند الى وهج «جاك دريدا او رامان سلدن» في النظرية الادبية المعاصرة. فالهم الاشمل عند علي هو التعبير الذي قاده نحو العالم الاكبر للمعاصرة، فالتجربة لديه لم تفقد خصوصيتها وانما أتت برؤية ماذا تريد من الخصوصية في النص الادبي؟

فالممارسة على مستوى «الفكرة» لم تفقد الخصوصية في الممارسة لديه، اذ جمال اللغة عند علي في الحاسة التي تسكنه بلون اطياف اللغة التي قد اشرت اليها في هذا الديوان وحددت معالم الالهام لقائد تمرس في لعبة النص.

ولو اردنا البحث عن عوامل الضعف في نصوص الديوان، قد نصل الى خيط مهم في العملية البنائية للنص، وهذا الخيط من الممكن ان يأخذنا نحو القوة للنص دون انشغالنا في البحث عن الاخفاقات التي تبعدنا عن البحث في ضعف النص وذلك لوجود عامل الالهام الذي يتمتع به علي في علاج همه الشعري، وهذا العامل المهم قد يأخذ بنا نحو انسياب النص في ذاكرة المشهد الشعري العام، كما يراها الدكتور عبدالقادر فيدوح في رؤيته نحو مفهوم شعرية الانزياح في القصيدة الحديثة في البحرين حيث يرى الدكتور فيدوح «ان احتواء النص والدلالة، على مدلول الانزياح من حيث كونه جوهر الشعر». ولو رأينا موقف اثر الانزياح عند علي في حورية العاشق، فنرى أن هذا الانزياح هو «الغياب»، وهو اللغة التي تمحص وتثور بين توجيه الجمالي في محاولة لتأكيد الوظيفة الجمالية للشعر، واعتبارها المسافة الاختراقية لكسر النمطية واعادة تنظيم الخطاب الشعري كما رآه فيدوح في القصيدة الحديثة في الخليج العربي في مفهومه العام نحو الانزياح، اذا من الممكن ان نقول ان مملكة علي الشعرية هي في توطين الحاسة الحدسية للنص، وتأكيد ملامح هذا النص بتوطين لغة جديدة هي (الوضوح) ان جاز في التعبير، وجهد الشاعر في توطين الصورة وتحريكها نحو ملاحقة القارئ واشغاله بجنون ملكة الشعر، وليست اللغة والالهام الا اساسين محركين في تأكيد الذات الشاعرة وهما الركيزتان اللتان قد جعلتا من هذا الديوان رسالة اخرى من الممكن ان يرى فيها النقاد الكثير، وليست لشعرية الكلمة عند علي حدود، لأن رسالة الشاعر هي معلم جديد لم تحتمل حدوده الجغرافية، حتى باستطاعة المتتبع ان يصل الى عمق التناول للهمس على مملكة العشق لدى الشاعر. وارى ان رسالة (التخيل) في هذا الديوان هي رسالة مرتبطة (باللغة) وان حورية العاشق هي الدار الدافئة المفتوحة الرؤى نحو قراءات وقراءات عديدة لنصوص المجموعة حتى يصل المتتبع الى قرار ساحل علي الشعري الكثير الموج، والمتلقي بمخزون العطاء المتجدد برؤية، قد فتحت عليا لكنها اسسته في مدار اعمق من (القيد) وليس البعد العاشق في هذا القيد سوى بحر علي (التخيل والملهم) في فكرة النص العاشق.